الأهرام

المصدر: الحياه

التاريخ: ٣١ اكتوبر ٢٠٠١

عبدالله انس رفيق "أسد بانشير" يروي لـ"الحياة" فصولا من تجربته الأفغانية (الحلقة الثانية)

مسيرة ٤٠ يوماً إلى مزار الشريف بينها ٣ أيام بلا كلام و"مواجهة" مع الهزارة

اغتالوا ذبيح الله قبل أن نلقاه وراحوا يرددون إسم "الأمير المحترم" أحمد شاه مسعود

□ يروي عبدالله أنس في هذه الحلقة (الثانية) قصة رحلته الأولى ضمن قافلة المجاهدين الافغان الى مزار الشريف وتأسيس «مكتب الخدمات». وكان تحدث في الحلقة الأولى عن أول لقاء مع الشيخ عبد الله عزام في مكة المكرمة ثم انتقاله إلى باكستان حيث بات عنده استعداداً للانتقال إلى أفغانستان.

■ كان الشتاء على الأبواب عندما استعدت القافلة لعبور الحدود الباكستانية الى داخل افغانستان. اشتريت بعض الملابس لاتقي بها صقيع الشتاء الأفغاني القارس. انطلقنا. لكنني لم اكن اعرف حجم المغامرة التي أقدم عليها. سرنا ٤٠ يوماً. كانت الثلوج تتساقط علينا، والبرد يخترق العظام. توفي إثنان أو ثلاثة معنا في القافلة من شدة البرد. ولكن لم يكن من مفر سوى متابعة الرحلة على رغم كل الصعاب. فالعودة الى باكستان مستحيلة.

وعلى رغم كل هذه المصاعب، كنا نشعر بسعادة عجيبة. كانت تغمرنا السعادة لأننا، على اقل تقدير، نساهم مع هؤلاء الافغان الشجعان الذين بداوا الجهاد قبلنا بخمس سنوات، وما زالوا صامدين على رغم كل العظمة العسكرية للإتحاد السوفياتي.

في الطريق الى مزار الشريف، دخلنا منطقة تُدعى هزاراجاد، وهي للشيعة في وسط افغانستان. اذكر انني لم أكن أعرف الفارسية بعد، وكان معنا مترجم هو نفسه يحتاج الى مترجم لكي يفهم علينا ويُفهمنا ماذا يحصل. كان يسالنا، مثلاً: هل تريدون بيضاً؟ لكننا لم نكن نفهم ماذا يقصد.

في هزاراجاد، انتحى بي جانباً قائد القافلة. كان عمره ٢٤ سنة، ويدعى ظريف وهو ظريف فعلاً. تاثرت به. اعجبني انه لا يزال في سن الشباب ولم يدرس في كليات حربية لكنه على رغم ذلك يتحمل مسؤولية قافلة تضم ٣٠٠ مجاهد محملة بالسلاح والذخائر يريد أن ينقلها من باكستان إلى مزار الشريف على حدود روسيا تقريباً. كنت انظر إليه نظرة إكبار، ولا ادري ما الذي حصل له. إذ لم أره بعد تلك القافلة.

جاءني قائد القافلة وكلمني بحكم أنني «امير» الأخوة العرب. قال: في هذه المناطق عليكم لمدة ثلاثة أيام ان تسيروا بلا كلام. لا بد من ان تُغيّروا ايضاً القبعات التي على رؤوسكم وتضعوا عمائم محلها. وعلى رغم صعوبة الفهم بيننا، فهو لا يعرف العربية جيداً ونحن لا نعرف لغته، لكننا فهمنا ان هناك رسالة يريدنا ان نستوعبها وهي ليست في مصلحتنا. بالتكرار، فهمنا انه يقول لنا اننا الآن في مناطق الشيعة والسكان لا يحبونكم، وانهم لو عرفوا انكم من العرب فسيعطلون القافلة بسببكم.

وحتى الآن لا افهم ذلك التغيير. إذ كنا قبل دخولنا مناطق الشيعة نشتري رغيف الخبز بثلاث روبيات، اي اقل بكثير من بنس اميركي واحد. لكننا عندما دخلنا مناطق هزاراجاد صرنا نشتري رغيف الخبز بثلاثين روبية. عجبنا لذلك. عجبنا ايضاً عندما راينا هذه المناطق خضراء والورشات فيها مفتوحة والحياة فيها تدب، في حين تعاني بقية افغانستان من الدمار. لكن ذلك بالنسبة إلي لم يكن يعني شيئاً. فأنا جئت من منطقة ليس فيها عرق طائفي، ولا اديان اخرى. في الجزائر، الحمد لله، الجميع مسلم، وليست عندنا مشكلة المجتمعات التي تتكون من عرقيات وطوائف ومذهبيات مختلفة.

ثلاثة أيام بلا كلام... وتحقيق!

في أي حال، كنا نسير في تلك المناطق ونحن صامتون. ثلاثة ايام كنا مثل «الأطرش بالزفة»، لا نعرف ما الذي يدور حولنا. كنا نتناول عشاءنا الأخير في هزاراجاد. كان الوقت ليلاً عندما وصلت فرقة تفتيش الى المطعم. وعندما اقول مطعم، فهذا الإسم يجب ان يُوضع بين قوسين. فهو في الحقيقة أشبه بزريبة مغطاة بالزنك وفيها إبريق شاي يغلي. وعندما نقول «عشاء» فالمقصود هو «الشاي والخبز»، الذي كان طعامنا في معظم الأيام الـ٤٠ لرحلتنا.

توجهت مجموعة المفتشين، وهم من القادة المحليين المسؤولين عن تلك المنطقة، إلى قائد القافلة ظريف: «معكم أجانب هنا»، قال: ليس بيننا أجانب. قالوا له: بل بينكم اجانب. إقتربوا مني وقالوا: تكلّم بالفارسية. التزمت الصمت. فعرفوا انني اجنبي، وطلبوا مني ان اسير معهم.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

سرنا قرابة عشر دقائق. ادخلوني الى مركز قيادتهم. رأيت شباباً من الهزارة الشيعة وعلى الحائط وراءهم صورة ضخمة للإمام الخميني تغطي الحائط كله. قال لي واحد منهم وكان يتكلم العربية واعتقد بانه قائدهم إذ جلس في صدر المجلس والناس تقف إلى يمنيه وشماله: من اين انت؟ قالها باللهجة المفخّمة. اجبته: انا جزائري. فسالني: كيف تدخل افغانستان من دون تاشيرة؟ قلت له: لا اعرف انني احتاج الى تاشيرة. ففي افغانستان نظام خاضع للروس، وشعب افغاني يقاوم ليحرر ارضه. ونحن دخلنا مع هؤلاء الذين يريدون تحرير ارضهم. لم اعرف ان عليّ ان احصل على تاشيرة منكم ايضاً.

فقال: لا بد لك من ان تحصل على تاشيرة لتدخل افغانستان، ولا بد لك من إذن حتى تدخل مناطقنا. فقلت له: حصل ما حصل، فماذا عليّ أن افعل؟ قال: لا بد من ان ننظر في امرك.

شعرت بأن الأمر قد يزداد تعقيداً ولا يستطيع المجاهدون نصرتي. إذ عليهم ان يسيروا في منطقة هازارجاد قرابة سبعة ايام قبل الوصول الى منطقة لا تخضع لهؤلاء القوم (الهزارة). وبالتالي فإن قافلتنا، وإن ضمت ٣٠٠ مقاتل لا يمكنها ان تنصرك لأنها ستخسر المعركة في النهاية. إذ يمكن ان يقطع الهزارة الطريق وتحاصر القافلة.

فكّرت في الأمر. ألهمني الله ان اقول لقائد مجموعة الهزارة: حسناً، قبل ان آتي الى افغانستان كنت في الجزائر. وهناك كنا نقرا ان الإمام الخميني إمام المستضعفين. وانا انسان مستضعف الآن. كنت اظن انني ساكون ضيفاً على الشعب الافغاني.

فنظر اليّ وقال: تعرف تتكلم!... وبعد ذلك، لأنّ الجو. وقال لي: إذهب خلاص. اكمل طريقك مع القافلة.

ذبيح الله ومزار الشريف

بعد مسيرة ٤٠ يوماً وصلنا الى حدود الولاية التي تقع فيها مزار الشريف. كُنت قد ابتليت بتورم اظافري بفعل الثلوج. فأوصلوني الى النقطة الأولى من نقاط الجمعية الإسلامية وتركوني فيها. إذ لا يمكن ان تنتظرني القافلة، فعليها أن تسير مسافة ثلاثة ايام أخرى للوصول الى وجهتها في قلب الولاية.

لدى وصولنا الى حدود الولاية بدا المجاهدون يُكبّرون ويُطلقون النار فرحاً. قالوا لي: سناخذكم الى بيت قاري إبراهيم. وهو احد قادتهم في المنطقة. اخذوني الى بيته وبداوا يبحثون عن طبيب او دواء لمعالجتي. لكنهم لم يجدوا شيئاً. فوضعوني في الفراش واتوا بمادة مصنوعة من العنب يخزّنونها. وضعوا لي منها على اظافري وضمّدوا قدمي وقالوا: الله يشفيك. وغادروا.

بقيت هناك ثلاثة ايام حتى خفّ الألم. تابعت الرحلة مع بعض الشباب والتحقنا بالقافلة الى وجهتها النهائية. كنت أسمع طوال الرحلة - في ايامها الأربعين - بزعيم اسمه ذبيح الله هو «أمير» ولاية مزار الشريف. وكان تحت إمرته قرابة تسعة آلاف مجاهد. كنت ألاحظ طوال الرحلة المجاهدين يتلهّفون للوصول الى مزار الشريف لرؤية ذبيح الله. عجبت لدرجة تعلّق هؤلاء المجاهدين بقائدهم. ولكثرة تهلّفهم اليه، صرنا نحن العرب أيضاً متلهفين لرؤية هذا الأسطورة. ذبيح الله. ذبيح الله. كنا نسمع بهذا الإسم على الدوام. وكنا كلما دخلنا منطقة او منزلاً نسمع بإسمه ايضاً. كل شخص في المنطقة كان يمتدحه ويذكره بإجلال.

فجأة بدأ العويل والبكاء. ارتبكت القافلة. لم نكن نعرف شيئاً عما يحصل. فاللغة جديدة، وكذلك العادات والتقاليد. فقال لي «أبو أسيد السوري»: لا ادري ما الذي حصل لهم؟ الأمور تغيّرت.

بدانا نحاول ان نحشر انفسنا في ما يحصل علّنا نسمع خبراً يشرح لنا ما الخطب. لكنهم اخفوا عنا كل شيء. كنا نقترب منهم ويكونون ثلاثة او اربعة جالسين بعضهم إلى بعض، لكنهم ما ان يلحظوا وصولنا حتى يمسحوا دموعهم ويصطنعوا البسمات. ربما لم يريدوا إقلاقنا. لكننا عرفنا أن شيئاً كبيراً حصل.

بعد وصولنا الى مزار الشريف، استقبلنا اميرها بالنيابة مولوي علم، وكان عالم دين تخرّج من كلية الشريعة في كابول. لكنه اخفى عنا الخبر أيضاً. كنا نقول: أين ذبيح الله؟ نريد ان نرى ذبيح الله. كل الطريق والناس تتكلم عنه، والآن بات لنا أربعة ايام في الولاية ولم نره. أين الأمير؟

اخفوا الأمر علينا حتى أعلنه زعيم الجمعية الإسلامية برهان الدين رباني من مقر قيادة حزبه في بيشاور لوسائل الإعلام. قال إن ذبيح الله تعرّض لعملية اغتيال بتفجير سيارته. كانت المنطقة كلها في حداد. كنا نسمع عويل النساء من داخل بيوتهن، على رغم شدة محافظة الشعب الافغاني. هول الصدمة كان عظيماً. ادركت ما هي قيمة هذا الرجل العظيم في منطقته، والى اي حد تقدّره الناس. بقينا معهم وحزنا معهم. واتُّفق على تعيين مولوي علم اميراً خلفاً لذبيح الله، وتشكّلت الجبهة من جديد.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

بعد فترة بدأنا نعي ما يحصل من حولنا، إذ بدأت فارسيتنا تتحسن. صرنا نقدر ان نضع كلمة الى جانب اخرى، ونوصل معنى ما نريده... بعد تكرار الجملة عشرات المرات.

«أمير صيب»

إضافة الى تقدير المجاهدين لذبيح الله، الأمير المباشر للمنطقة، لفت انتباهي ان هناك إسماً آخر يُطرق باستمرار الى جانب اسمه. كانوا يكررون دوماً عبارة «أمير صيب»، ولكن من دون تحديد المقصود. «أمير صيب» تعني «الأمير المحترم»، وهي كلمة بالفارسية تعني «أمير صاحب»، والكلمة الأخيرة يلفظها الأفغان «صيب». لكنهم لم يكونوا يذكرون إسم هذا «الأمير المحترم». سألت مولوي علم، الأمير الذي خلف ذبيح الله: من المقصود بـ«أمير صيب»؟ فإجابني: يقصدون احمد شاه مسعود.

وتبيّن لي ان هذا الرجل لا يقلّ تأثيراً عن ذبيح الله. فقلت لمولوي علم: اين يقبع احمد شاه مسعود؟ ولم اكن حتى ذلك الوقت قد سمعت باسمه. فقال لي: احمد شاه مسعود قائد عظيم، دوّخ الروس في افغانستان، وجبهتنا كلها تأتمر بأمره، وهو الذي درّب ذبيح الله وهو استاذه في الجهاد.

فكّرت في الأمر ووجدت ان ذبيح الله الذي كنت أشعر بأنه الأول والأخير في افغانستان، يذوب امام رجل آخر اسمه أحمد شاه مسعود. وكنت بدأت ادرك في تلك الأيام الأولى من وجودي في شمال افغانستان ان هناك نوعاً من الخلافات داخل جبهة مجاهدي الجمعية الإسلامية. تبيّن لي أن هناك خلافاً بين ثلاث شخصيات على قيادة الجبهة خلفاً لذبيح الله: مولوي علم الأمير العالم، وعلم خان القائد العسكري في أيام ذبيح الله، وعلم خان آخر كان نائب ذبيح الله.

وقع خلاف بين الثلاثة على من يخلف ذبيح الله: العالم مولوي، القائد العسكري، ام نائبه الفعلي. وكان هناك قائد قوي في المنطقة يدعى مولوي عبدالله عالم، وكان قاضي الجبهة. كانت شخصيته قوية جداً، واستطاع حسم الخلافة لمصلحة مولوي علم. لكن هذا لا ينفي ان الجبهة كانت بالفعل بدأت تشهد تفككاً. فالانسجام ايام ذبيح الله الذي كان يأتمر بأمره تسعة آلاف مجاهد، بدأ يتفكك. وعلى رغم تعيين أمير من الناحية الإدارية، إلا ان الولاءات على الأرض كانت اهتزت.

كنت لا أزال جديدا بينهم، لكنني أدركت ان الأوضاع لا تسير في مسارها الصحيح. فخطر في بالي مسعود، هذا الرجل الذي ذُكر اسمه أمامي والذي يحظى بهذا القدر من الإعجاب وهو محل إجماع حتى عند هؤلاء الثلاثة المختلفين بحكم أن أباهم الروحي ذبيح الله، قائدهم المحنّك، هو نفسه يذوب في مسعود. قلت إن الثلاثة سيأتمرون تلقائياً بأمر مسعود. فخطر في ذهني أن أطلب منهم نقلي على جناح السرعة لأرى مسعود وأطلعه على المشكلة التي قد تقع في المستقبل وبسببها يمكن ان تتفكك الجبهة.

رجعت الى مولوي علم وقلت له: هل يمكن ان ترسلني الى أحمد شاه مسعود. فقال: كيف تذهب الى مسعود؟ نحن الآن في فصل الشتاء، وإذا أردت الانتقال الى بانشير فإنك ستقضي ١٥ يوماً لتصل. الطريق شاقة ويمكن أن تموت في الطريق. يمكن ان تسقط في مكمن روسي. يجب ان تقطع خمس ولايات من مزار الشريف للوصول الى بانشير. بعد مزار الشريف، هناك ولاية جوجيزان وقندز وباميان وتاخار قبل الوصول الى مسعود في بانشير. أجبته: لا بد من أن أذهب. لكنه منعني من السفر.

فتبيّن لي ان الأمر أكبر بكثير منا، نحن العرب الثلاثة الذين جئنا مع القافلة. كنا ثلاثة شباب ليس لديهم خبرة ولا تدريب ولا مال. ففكّرت في ان المشاركة في الجهاد أكبر من مستوانا بكثير. ما يحتاج اليه الشعب الأفغاني، سواء في بعده التثقيفي او التعليمي او الإغاثي او الدعوي او حتى الحربي، هو مشاركة أقوى وأعلى من مستوانا.

قررت، بعدما منعني من الذهاب الى مسعود، أن أعود الى بيشاور على وجه السرعة. لم يكن هناك مفر من ذلك. فالأوضاع كانت على حافة الانفجار، وتيقّنت ان قيمة مشاركتنا في الجهاد الأفغاني، نحن العرب، سطحية جداً ولا تكفي، وان لا بد من مخاطبة العالم الإسلامي ليتحمل مسؤوليته. فالقضية الأفغانية اكبر من خمسة عرب أو ٢٥ عربياً أو ٥٠ عربياً. كنت أفكّر في أن أشرح هذا الأمر للشيخ عبدالله عزام على ان ينقل هو هذه الصورة الى العالم العربي والإسلامي، ويطلب مزيداً من الدعم للقضية الأفغانية.

قال لي مولوي علم: إذا كنت مصراً سنجهز لك قافلة تعيدك الى باكستان. ليست قافلة كاملة وانما سبعة رجال أو ثمانية يكونون بمثابة دليل في الطريق. فقلت له: قبل أن أعود الى باكستان وفي انتظار ترتيب امر القافلة، عندي تعليمة من الشيخ عبدالله عزام تنص على ضرورة ان آتي بصورة كاملة عن قادة «الحزب الإسلامي» و«الاتحاد الإسلامي» والحركات الأخرى الناشطة في المنطقة، لئلا تقتصر الزيارة على قادة «الجمعية الإسلامية» فقط.

اعطاني مولوي علم حصاناً ودليلاً. وقال ان مولوي عبدالسلام، أمير «الحزب الإسلامي»

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

بقيادة غلب الدين حكمتيار، يسكن في المنطقة الفلانية التي تبعد ثلاثة أيام ركوباً على ظهر الحصان. ذهبت اليه. كانت المناطق التي نقطعها كلها جبلية. ليست فيها طرقات، ولا كهرباء. لا شيء. وكان هو على علم بان قافلة من العرب وصلت الى افغانستان، وكان على اتم الاستعداد لاستقبالنا. وما أن وصلنا الى الوادي حتى بدأوا بإطلاق النار فرحاً بنا. سالنا مولوي عبدالسلام، وكان يتكلّم العربية، عن الأوضاع في بيشاور وعن حكمتيار. ومن خلال حديثه، ادركت امراً ثانياً وهو ان قادة «الحزب الإسلامي» متعلّقون بحكمتيار تعلّق مؤيدي «الجمعية الإسلامية» بذبيح الله ومسعود. كانت صور حكمتيار في كل مكان. وأشرطة محاضراته تسمع كل يوم في المغاور والجبال حيث مراكز «الحزب الإسلامي». بقيت مع «الحزب الإسلامي» ثلاثة ايام وتعرفت إلى حجمهم وتنقلت معهم في جبهاتهم، واستطعت ان أكون صورة اوضح عن افكارهم وطريقة عيشهم.

كذلك ذهبت في زيارة أخرى الى مولوي جمعة، وهو أحد القادة التابعين للشيخ سيّاف في المنطقة. وكان الشيخ عزام، عندما كنت في بيشاور، عرّفني إلى عبد الرسول سيّاف بصفته «أمير المجاهدين» في ذلك الوقت، لأنهم بايعوه في مكة المكرّمة بعدما فُتحت لهم الكعبة. وعلى هذا الأساس، كان الشيخ عزام ياخذنا تلقائياً الى سيّاف. لكن هذه الصورة تغيّرت خلال وجودي في داخل افغانستان، ورأيت ان الثقل الحقيقي هو لـ«الحزب الإسلامي» و«الجمعية الإسلامية» وليس لسياف.

العودة الى بيشاور

رجعت الى باكستان. استغرقت الرحلة هذه المرة ٣٠ يوماً وليس ٤٠. فالقافلة المحملة بالأسلحة يختلف تنقلها عن تنقل مجموعة صغيرة من ثمانية أشخاص.

وجدت ان الأوضاع تغيّرت في باكستان. استغرقت رحلتي كلها قرابة اربعة شهور فقط. لكنني عندما رجعت وجدت الأمر تغيّر. فالشباب الذين تركناهم في بابي بين الافغان وجدناهم في بيشاور قد فتحوا مضافة مستقلة للعرب اسمها «مضافة أبي عثمان». والمضافة تعني بيتاً خاصاً. كان العرب قبل ذهابنا الى مزار الشريف ينزلون عند الشيخ سياف في قريته بابي، وكان عددهم لا يتجاوز الـ١٥. لكنهم الآن بات لهم بيتهم الخاص، كما ان عددهم ارتفع الى ٧٠ أو ٨٠ شخصاً.

رجعت الى الشيخ عبدالله، رحمه الله، وكانت فرحته لا توصف. فهو يرى أول شخص عربي يعود من قافلة ارسلها إلى داخل افغانستان، وها هو يروي الآن امامه الصورة الكاملة الحقيقية للوضع في الداخل. نقلت إليه الصورة، وشرحت له من هو مولوي علم ومولوي عبدالسلام وقادة الجهاد الآخرين في شمال افغانستان.

وكان من بين الأمور التي حصلت انه اخذني إلى برهان الدين رباني، زعيم «الجمعية الإسلامية». فقال لي: كيف رأيت جبهاتي في الداخل؟ لم يكن رباني قادراً في ذلك الوقت على الانتقال الى الداخل. وكان المقاتلون بمعظمهم لا يعرفون قادتهم. وبعض الأمراء كان يجاهد منذ سنوات ولم يلتق أميره ابداً. قادة الجهاد الافغاني كانوا متمركزين في باكستان مثل سياف وحكمتيار ورباني، وكان ارتباطهم بقادة الجبهات في الداخل عبر موفدين في معظم الاحيان. كان الموفد ياتي من الجبهات الى بيشاور ويلتقي قادة الجهاد ويحمل التعليمات الى الداخل.

قال لي رباني: كيف رايت قادتي هناك؟ فقدّمت إليه صورة عمّا رايت. لكنني قلت له إنني أخشى ما يمكن ان يحصل مستقبلاً. فهناك ثلاثة اسماء مطروحة لخلافة ذبيح الله، ولكل منها قوتها واحترامها وهيبتها بين المجاهدين في صفوف الجمعية في مزار الشريف. وقلت له إنني اخشى ان ينفجر الوضع بين الثلاثة - وهم مولوي علم وعلم خان وعلم خان نائب ذبيح الله - وتتاثر بذلك الجبهة برمتها، وهو أمر يمكن ان يستغلّه الروس. فقال لي: إنني اتابع هذا الامر بقلق، فماذا تقترح؟ قلت له إنني لا أزال شاباً صغيراً لا أعرف ماذا اقترح، ولكن ما يمكن ان اقوله هو ان مولوي علم إنسان لا غبار عليه. فقال انه يفكّر في تشكيلة معيّنة لإرضاء الخواطر: ان أبقي مولوي علم في منصبه اميراً على المنطقة، وعلم خان في وضعه القديم قائداً عسكرياً، واسحب علم خان (نائب الامير وليس القائد العسكري) وارسله ليمثّل الجمعية الاسلامية في مكتبنا في القاهرة. ولم تكن مصر انذاك تمانع في الجهاد الافغاني، بل كانت تقدّم إليه الدعم. واذكر انني وجدت على بعض الجبهات شباباً يفضّلون الكلاشنيكوف المصري على الصيني.

العرب قطرة في بحر

قدّمت إلى الشيخ عزام تقريراً مفصلاً عن زيارتي، وقلت له: يجب أن تعلم أن مشاركة العرب في افغانستان هي قطرة في بحر. إن الاموال التي في ايديكم لا تكفي لإطعام جبهة واحدة ليوم واحد. وكان الشيخ عبدالله اعطاني عندما ذهبت الى افغانستان مساعدة مقدارها مئة الف روبية باكستانية لإعانة المجاهدين. وبالكاد غطّى المبلغ نفقات رحلة القافلة الى الداخل. إذن، كان واضحاً ان مساعدات العرب للافغان لم تكن بشيء.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وقلت له أيضاً: الأمر أكبر بكثير من الإمكانات التي عندنا. الجهاد يحتاج الى مساعدات أكبر وأعداد أكبر والى نوعيات قبل العدد. ان الشعب الأفغاني متعصب للمذهب الحنفي ولا يعرف شيئاً عن المذاهب الأخرى، وبالتالي، فإن على أي عربي ان يفهم هذا الوضع قبل دخوله افغانستان. ولا بد، أولاً، من دعاة قادرين على الدعوة الإسلامية بالحكمة والتفتح، وعلى قدر كاف من الذكاء واللباقة. إذ ليس كل خطيب داعية. لا بد من داعية ذكي لبق قادر على التعامل مع مجتمع معقد وسطحي مثل المجتمع الافغاني. ثانياً، يجب ان تكون لدى الدعاة قدرة على إصلاح ذات البين. فللأسف، إضافة الى قتال المجاهدين الروس داخل افغانستان، إنهم يتقاتلون أيضاً في ما بينهم. اننا بحاجة الى أشخاص قادرين على تقريب وجهات النظر بين الحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية خصوصاً، لأن أكبر المشاكل داخل افغانستان كانت بين هذين الحزبين بحكم الندية. وقلت، ثالثاً، ان علينا جلب مزيد من الإغاثة الى الشعب الأفغاني لأن ما يقدم اليهم ليس سوى قطرة في بحر.

واذكر انه قال لي: إذن، لا بد من أن تذهب معي في موسم الحج عام ١٩٨٥. فهناك سأعطيك الكلمة للتحدث امام رابطة العالم الإسلامي في مكة، ويجب أن تنقل هذه الصورة إلى العلماء.

"مكتب الخدمات"

ثم كشف لي الشيخ عبدالله انه أسس، خلال غيابي في الشمال الأفغاني، مكتباً أطلق عليه اسم «مكتب الخدمات»، وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها بمكتب الخدمات. قال: أسسنا مكتب الخدمات نحن ومجموعة من الأخوة في غيابك، وكان بينهم أسامة بن لادن. أسسنا المكتب لتنظيم مشاركة العرب في الجهاد الأفغاني. لا نريد إبقاءهم في المضافات الأفغانية المتفرقة. نريد ان نجعل لهم مواقع مستقلة فتكون مشاركتنا مع الجميع وليس مع طرف واحد ضد الآخر.

ثم شرح لي هدف تاسيس المكتب قائلاً: الشعب الأفغاني منقسم إلى سبعة أحزاب، وإذا بقي الأمر كما هو الآن، اي ان يشارك العربي مع من يشاء من فصائل المجاهدين، فإن خلافات الأفغان في ما بينهم ستنعكس على العرب الذين سيختلفون بالتالي في ما بينهم. وأداؤنا هنا بدل ان يكون ايجابياً سيتحول مشاركة سلبية. فالدعاية المضادة التي يقوم بها هذا الحزب ضد الحزب الآخر سيتبناها العرب الذين مع هذا الحزب. وفي الوقت ذاته فإن العرب الذين يقاتلون مع الجانب الآخر سيحملون الدعاية المضادة نفسها ضد الآخرين. وإذا تاثر العرب في كلا الطرفين بافكار الأحزاب التي ينتمون اليها فإن الخلاف سينتقل بدوره الى العرب الذين سيكونون مشكلة على الشعب الأفغاني بدل أن يكونوا عاملاً مساعداً لقضيتهم. ومن هنا، لما كانت المهمة صعبة جداً فإنها كانت أيضاً تحتاج الى أشخاص خاصين لكي يقوموا بهذا الأمر.

وأضاف: على هذا الأساس أسسنا مكتب الخدمات لينظّم المشاركة في أي عمل داخل افغانستان، ويجب ان يمر عبر المكتب ليفهموا (الأفغان) اننا جئنا الى داخل أفغانستان للوقوف الى جانب شعبهم برمته وليس الى جانب حزب ضد آخر.

من هنا جاءت فكرة تاسيس «مكتب الخدمات» في أواخر ١٩٨٤ ومطلع ١٩٨٥. تاسس المكتب ليقوم بهذه الأبعاد الثلاثة: إغاثية وإصلاحية ودعوية. بدأ المكتب بفتح معاهد ومدارس في داخل أفغانستان، كما فتح معاهد دينية للإفغان الذين فروا الى باكستان وكان عددهم يُقدر بثلاثة ملايين. وبالنسبة الى البُعد الإغاثي تولّى المكتب كفالة مئات الآلاف من الأيتام والأرامل. طبعاً، لم يكن المؤسسة الإغاثية الوحيدة في بيشاور. إذ كان هناك الهلال الأحمر السعودي والهلال الأحمر الكويتي، وكانت هناك مؤسسات إغاثية غربية من بريطانيا وفرنسا وأميركا والمانيا.

لكن ثمة فرقاً كبيراً بين العمل الإغاثي الذي يقوم به «مكتب الخدمات» والعمل الذي تقوم به مؤسسات الإغاثة الأخرى. فهذه كانت كلها ابتعاثية، اي ان المسؤولين عنها مبتعثون من قبل حكوماتها لفترة محددة، قد تكون سنة أو سنتين أو ثلاثة. أما «مكتب الخدمات» فكانت مهمته تنظيم المتطوعين وليس المبتعثين. المؤسسات الأخرى كانت تمتلك إمكانات كبيرة لأنها كانت مبتعثة من دول. لكن مشكلتها انها لم يكن عندها متطوع ينقل المساعدات الى المحتاجين داخل أفغانستان. فكان لا مفر أمامها من التعامل مع المكتب الذي كان بمثابة «اليد الضاربة» التي تنقل المساعدات الى الداخل. فإدخال الأدوية أو البطانيات او الملابس او المساعدات العينية الى الداخل ليس رحلة او جولة سياحية. إذ يمكن ان تموت وتفقد قافلتك كلها. وبالتالي كان ضرورياً وجود متطوع جاء قبل أي شيء آخر ليستشهد. وهذا الفرق بين المبتعث والمتطوع. الأول مبتعث من دولته ليمضي سنة او سنتين في ساحة بيشاور، بسيارة خاصة وحرس ومفتاح المخازن في بيشاور. المساعدات كانت تاتي بالطائرات من العالم العربي لكنها كانت تُخزن في بيشاور، وهناك مسافة طويلة لنقلها الى داخل أفغانستان.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

المبتعث يكون متعهداً لدولته ان يمثلها في بيشاور. لكنه ليس مستعداً للذهاب عبر الحدود على رجليه الى قندهار ومزار الشريف في رحلة قد تكلفه حياته. ومن هنا كان لا بد من العنصر العربي، لأن رأس الأمر فيه هو انه جاء للشهادة في سبيل الله. وبالتالي فإنه في طريقه الى داخل الجبهات في أفغانستان كان ينقل معه ألف بطانية أو خمسين ألف حذاء أو مستشفى متحركاً. نقل الإغاثات كان مهمة ضمنية ضمن مهمته داخل أفغانستان.

على هذا الأساس، كانت مهمة مكتب الخدمات فعالة جداً. وكان الشيخ عبدالله عزام، رحمه الله، يحاول دائما الحفاظ على هذا الكيان لئلا يدخل وينشغل في معارك جانبية أخرى غير الجانب الأصلي الكبير الذي جئنا من أجله وهو ان نقف الى جانب الشعب الأفغاني وننصره ونساهم في تعليمه وإغاثته وان لا نغرق في المفاسد التي تحصل بين فصائله.

ولذلك حُصر عمل «مكتب الخدمات» بثلاث مهمات (إغاثية إصلاحية ودعوية) كان الشيخ عبدالله لا يقبل دونها أي تفريع. فقد كان هناك بعض الشباب يقولون أحياناً: لماذا لا تُجري لنا دروساً في المضافات في بعض المواضيع مثل الولاء والبراء وتكفير هذه الحكومة أو تلك. وكان يرد: انتم يا أخوة منّ الله عليكم بان تاتوا الى هذه الأرض للجهاد في سبيل الله، وهذا الشعب الأفغاني بحاجة الى مساعدتكم التي لا تُقـدّر بشيء في الأصل وإنما هي لمصلحتكم انتم قبل ان تكون في مصلحتهم هم. فلا تُفرّعوا معركتكم. حُكّام العالم لا يهموننا. معركتنا هنا محصورة بأفغانستان.

لم يكن الشيخ عبدالله مهتماً سوى بالقضية الأفغانية. كان يذهب الى السعودية ويخطب في مساجدها علناً ويجمع التبرعات بالملايين. وكان المسؤول عن البريد في «مكتب الخدمات» ينزل كل يوم الى مكتب البريد وياتي بعشرات الرسائل تضم شيكات الواحد منها بعشرة او عشرين الف دولار من التبرعات التي تاتي من السعودية. وحتى السلطات السعودية كانت تُقدّم خصماً مقداره ٧٥ في المئة من تذاكر السفر لمن يريد الذهاب للجهاد في أفغانستان.

إذن في ذلك الوقت، لم يكن «مكتب الخدمات» ذلك المكتب الخطير. كان رئيسه الشيخ عزام يصول ويجول في المملكة والخليج. وكان يزور كل سنة أميركا لحضور المؤتمرات ويُكلّم المسلمين الأميركيين عن الجهاد الأفغاني. وكانت مكاتب المجاهدين، مكاتب حكمتيار ورباني وغيرهما، منتشرة في أنحاء العالم الغربي. لم يكن هناك آنذاك غبار على الجهاد الأفغاني الذي يُريدون تصويره الآن بُعبعاً يُهدد العالم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية